من خصائص القرآن

ذكر العلماء طائفةً من الأمور التي يختصُّ بها القرآن الكريم ، أهمها ما يلي :

١ـ القرآن هو كتاب الله :

حيث أوحى الله سبحانه به إلى خاتم الأنبياء ﷺ ، مصداق ذلك قوله عز وجل : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ـ٥٣].

ولذلك ، فجبريل عليه السلام ليس إلا أمين الوحي ، نقل القرآن إلى رسول الله ﷺ .

والرسول ليس إلا مبلغاً ومبيّناً ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء : ١٩٢ـ١٩٥] .

وعلى الرغم من كل محاولات التشكيك بألوهية منزِّل القرآن ، واتّهام الرسول ﷺ بأنه هو الذي كتب القرآن وألّفه ، فإن المسألة كما قال البوصيري رحمه الله :

قد تُنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ

ويُنكر الفم طعم الماء من سَقَمِ!

٢ـ القرآن الكريم يتحدّى!! :

أولاً: جاء التحدّي لكل من يشكك بالقرآن أن يأتوا بمثله، قال تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٤] .

ثانياً: تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود : ١٣] .

ثالثاً: تحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله ، وليتكاتفوا في سبيل التحدّي : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣ـ٢٤] .

ثم كان التحدي بأبلغ صورة ، وهي الصيغة المستقبلية : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وأكّدت حقائق التاريخ ، ووقائع الحاضر ، فشلهم في ذلك ؛ لأن القرآن هو المعجزة الخالدة الباقية المتجدّدة، وكما قال أحمد شوقي رحمه الله :

جاء النبيّون بالآيات فانصرمَتْ وجئتنا بحكيمٍ غير منصرمِ
آياته كلما طال المدى جُددُ يزينهنّ جلالُ العتقِ والقِدمِ

والشيء الرائع أن لإعجاز القرآن وجوهاً ، منها : الإعجاز البياني ، والإعجاز التشريعي ، والإعجاز الاقتصادي ، والإعجاز العلمي ، ونحو ذلك .

٣ـ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ :

بعد أن تعرضت الكتب السماوية السابقة للتحريف والتزوير تكفّل الله سبحانه بحفظ القرآن بنفسه ، ولم يكل ذلك إلى أيّ أحد ، مصداق ذلك قوله سبحانه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

وقد هيأ الله سبحانه لذلك أسباباً كثيرة ، منها :

أ ـ أن العرب الذين أُنزل فيهم القرآن كانوا يمتازون بالحفظ إلى حدٍّ عجيب ، وكما قال ابن تيمية رحمه الله : (أمتنا ليست مثل أهل الكتاب ، الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم ، بل لو عُدمت المصاحف كلها ، كان القرآن محفوظاً في قلوب الأمة) .

ب ـ اتخذ الرسول ﷺ له كُتّاباً للوحي ، ومنعهم من كتابة أي شيء غير القرآن الكريم .

ج ـ وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه تم جمع القرآن ، من الصدور والسطور ، وبعد وفاته انتقل إلى عمر رضي الله عنه .

د ـ وفي عهد عثمان رضي الله عنه ، وباقتراحٍ من حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قاموا بنسخ عدد من النسخ عن النسخة التي جمعها أبو بكر ، ثم وزّعت النسخ في الأمصار الإسلامية ، كدمشق ، والقاهرة ، وبغداد . . .

هـ ـ ومن فضل الله وكرمه ازدياد عدد الحفاظ في كل وقتٍ وحين ، وازدياد الاهتمام بحفظ القرآن الكريم ، عن طريق

المعاهد ، والمساجد ، والكتابات ، وعن طريق الكمبيوتر ، والإنترنيت ، ونحو ذلك .

٤ـ ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ :

ليس القرآن ككتب الأدب ، ولا كتب الفلسفة ، ولا الكتب المختصّة بالعلوم البحتة ، حيث الرموز ، والألغاز ، والتعقيد ، إنما من خصائص القرآن أنه ميسّر للفهم ، سلسل لكل من يقرأ أو يتفكر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان : ٥٨] .

ومن الحكم في تنزيل القرآن واضحاً ، مبيّناً ، ميسراً للجميع ، ليعقل الناس معانيه ، ويفقهوا أحكامه ، ويُدركوا أسراره ، قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] .

٥ـ القرآن كتاب الدين والدّنيا! :

فمن أراد التعرّف على العقيدة الصافية ، فعليه بالقرآن ، مثال ذلك قوله تعالى في معرض إقامة البراهين على وجوده سبحانه : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] .

ومن أراد التعرف على الشريعة ، فعليه بالقرآن ، حيث ورد حوالي خمسمئة آية تتحدث عن الأسرة والعبادات والأحكام ، ونحو ذلك ، مثال ذلك آية الدّين في أواخر سورة البقرة .

ومن أراد التعرّف على الأخلاق ، الربانية منها والإنسانية فعليه بالقرآن ، مثال ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

ومن أراد التعرّف على ثبات الأحكام ، فليعلم أن القرآن هو الكتاب الذي جاء إلى كل الأجيال ، وكل الأزمان ، وإلى الإنسانية كلها ، وإلى الحياة كلها .

مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٧] .

ولهذا جمع القرآن الحقائق العلمية ، والحقائق الروحية ، والقيم الأخلاقية ، والقيم الجمالية ، إلى درجة ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما : لو ضاع منّي عقال بعيرٍ لوجدته في كتاب الله!

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

* * *